وَصَايَا وَتَوْجِيهَاتٌ

فِي فِقهِ التَّعَبُّدِ لِرَبِّ البَرِيَّات

تأليف

أ.د. إبراهيم بن عامر الرحيلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

وبعد فهذه وصايا مختصرة مفيدة في فقه التعبد لله عنونت لها بـ (**وصايا وتوجيهات في فقه التعبد لرب البريّات**) أذكرك بها أخي المسلم في ختام هذا الشهر الكريم شهر رمضان المبارك محبة ونصحـًا لعل الله أن ينفعني وإياك بها.

أولاً: اعلم يا عبد الله ما علّمك الله: أن الله غني عن الخلق أجمعين في كل شيء وأن الخلق كلهم فقراء إليه تعالى في كل شيء قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: ١٥].

وهو لكمال غناه عنهم لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم، قال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى

قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا»[(١)].

ثم هو لكرمه وجوده وإحسانه لك يا عبد الله يفرح بتوبتك أعظم من فرح الرجل الذي فقد دابته في صحراء عليها متاعه طعامه وشرابه، فلما أيس منها إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، وقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك[(٢)].

وهو أرحم بك من الأم الرحيمة بولدها[(٣)].

فلِمَ هذا الفرح من ربك بتوبتك، ولِمَ هذه الرحمة من خالقك بك؟

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر (٢٥٧٧) .

(٢) انظر الحديث في ذلك في صحيح مسلم (٤/ ٢١٠٤) ح(٢٧٤٧) .

(٣) دل على ذلك الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري في صحيحه (٥٩٩٩) أن النبي ﷺ رأى امرأة من السبي تحلب ثديها وتسقي، من وجدت من الصبيان في السبي فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أترون هذه طارحة ولدها في النار» قالوا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

ألا يستوجب هذا حبه محبة عظيمة تثمر الانقياد التام لشرعه والامتثال الكامل لطاعته، والشكر المتواصل لإحسانه، وتعظيمه تعظيمًا بالغًا يقتضي الانتهاء الكلي عن معصيته، والتوبة والإنابة والخجل من هذه الحال العجيبة منا في معاملتنا له، فخيره إلينا نازل وشرنا إليه صاعد، يتودد لنا بالخيرات والنعم ونتبغض إليه بالمعاصي والبدع، يتقرب منا مع غناه عنا ونفر منه مع فقرنا إليه. يفرح بتوبتنا وطاعتنا، ولا نحزن لمعصيته وسخطه.

فما أعظمه من رب كريم بر رحيم شكور ودود لطيف سميع مجيب ، وما أعظم تقصيرنا في القيام بحقه وأداء شكره.وإحصاء نعمه وإدراك مننه.

ثانيًا: تنبّه وفقك الله للفتة لطيفة ونكتة عزيزة أجمع عليها البشر قديمًا وحديثًا - مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم - وهي ضرورة حفظ حق الوالدين وعدم تناسي فضلهما على الولد؛ لأنهما سبب وجوده.

بل حتى الحيوانات فُطرت على إدراك حق الوالدين وعدم تناسيه.

وإذا كانت هذه حقيقة كونية فطرية تقتضي عدم تناسي حق المتسببين في الوجود وهم الوالدان، فما بالنا بالموجد الخالق لكل موجود؟ فكيف يحفظ حق المخلوق المتسبب وينسى حق الخالق الموجد للأسباب ومسبباتها؟

ولهذا متى ما تعارض حقه مع حق الوالدين فحقه مقدم لأنه الموجد الخالق، وهما لم يخلقا ولم يوجدا بل تسبَّبا، وهو المقدّر للسبب الخالق به وحده سبحانه.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ [الواقعة: ٥٨-٥٩].

وقال تعالى في الأمر بتحقيق عبوديته وعدم طاعة الوالدين في الأمر بالشرك به: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان: ١٥].

ثم تنبه لهذه اللطيفة التي تدل على عظيم إحسانه وحلمه وجوده وكرمه في حق الوالدين المجاهدين ابنهما على الشرك به وأمرهما ابنهما بشركه، وذلك في قوله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا

مَعۡرُوفٗاۖ﴾ فالوالدان يجهدان ابنهما على الشرك به وهو سبحانه يأمر الابن بمصاحبتهما في الدنيا بالمعروف، فسبحانه من رب شكور كريم رؤوف رحيم لم يسقط حق الوالدين في الإحسان إليهما من الابن بمجاهدتهما إياه على كفره وشركه، فما أجهل الإنسان وأظلمه وما أكرم الرب وأحلمه!

ثالثًا: اعلم وفقك الله أن حق الله على العباد عظيم، وأنّهم مهما توسعوا في العلم فلن يقدروا الله حق قدره في المعرفة بكماله، قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ [الحج: ٧٤].

ومهما اجتهدوا في العمل فلن يوفوه حقه في العبادة. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: «أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر»(١).

وروي هذا عن جمع من السلف منهم: مرة الهمذاني والربيع بن خثيم، وعمرو بن ميمون، والحسن، وطاوس، وقتادة، وإبراهيم

(١) تفسير الطبري (٥/ ٦٣٧).

النخعي، وأبو سنان، والسدي، ذكره ابن أبي حاتم(١).

وعن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لما نزلت: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفا على المسلمين: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦] فنسخت الآية الأولى»(٢).

وعن السدي: قال في تفسير: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: «فلم يطق الناس هذا، فنسخه الله عنهم» فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [سورة التغابن: ١٦] »(٣).

وهذا يثمر الاستحياء من الله ومقت النفس للتقصير في معرفة كماله، والضعف عن أداء حقه في العبادة، فمن الذي أطاعه فلم يعصه؟ وذكره فلم ينسه ؟ وشكره على كل نعمه ؟

وإذا كان الصحابة لم يطيقوا أداء حقه وقد تقرحت جباههم من

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٢) .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٥٨) .

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٦٤٣) .

كثرة السجود وتورمت أقدامهم من طول القيام فكيف بالناس بعدهم؟

ولكن العبد متى ما أدرك هذه الحقيقة فعلم عجزه عن أداء حق ربه عليه علما وعملا، وذل لخالقه واستحيا منه؛ قبل الله منه عمله ورفعه بهذا عنده درجات.

رابعًا: اعلم أيها المسلم الموحد أنك في أهل الشرك والكفر كشعرة بيضاء في ثور أسود، كما جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود، أو كشعرة سوداء في ثور أبيض»(١).

فهل أدركت حقيقة هذه النسبة ؟ وهل شعرت بهذه النعمة ؟وهل قدرت هذه المنة حق قدرها؟

ثم هل سألت نفسك يوما: لِمَ اصطفاك للتوحيد وجعلك مسلمًا موحدًا، صائمًا مصليًا، ذاكرًا خاشعا لربك ؟ أهو لشرف نسبك ؟ أم لعظم جاهك ؟ أم لفرط ذكائك ؟ أم لكثرة مالك ؟ لا والله ليس هذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢١).

هو السبب، فإنك تعلم من نفسك أنك لست أشرف نسبا من والد إبراهيم عليه السلام، ولا من أبي طالب وأبي لهب عمي نبينا ﷺ، ولا من ابن نوح عليه السلام.

ولست أعظم نفوذا وسلطانا من الملوك الكفرة الذي سادوا الخلق في زمانهم كفرعون والنمرود وبختنصر وأبرهة، ولا أعظم جاها من سادات العرب ووجهائهم كأبي جهل وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وعبد الله بن أبي.

ولست أذكى من الفلاسفة المتقدمين والمخترعين المعاصرين الذين بهروا الناس بعقولهم فأُوتُوا ذكاء ولم يؤتوا زكاء.

ولست أغنى من قارون قديما ولا من أثرياء العصر الكفرة المتحكمين في اقتصاد العالم وثرواته.

وكل هؤلاء الموصوفين ماتوا على الكفر لم ينفعهم نسب ولا شرف ولا عقل ولا ذكاء ولا مال ولاثراء.

فما السبب إذن في اصطفائك للدين من بين كثيرين من الهالكين؟

ها هو بيان السبب من خبر أصدق القائلين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ

ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٢ - ٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [النور: ٢١].

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].

فهذه آيات محكمات يخبرنا فيها ربنا عن سبب هدايته لعباده المؤمنين، سواء الهداية الإرشادية ببعثة الرسول ﷺ أو الهداية التوفيقية المثمرة للاستجابة له وامتثال الإيمان وأن هدايته لعباده

ترجع لرحمته بهم وتَفضِّله عليهم من غير استحقاق منهم لذلك.

أفلا يستوجب ذلك حمد الله في كل حال وحين على هذه النعمة العظمى والمنة الكبرى التي شرفك بها أيها المسلم، واصطفاك لها من غير حول لك ولا قوة فيها.

خامسًا: اعلم عبد الله أنّا ما عبدنا الله بعبادة إلا لله المنة علينا فيها من وجوه لا تحصى، فهو الذي أرشدنا لها، وهدى قلوبنا لإرادتها وقصدها، وهو الذي رزقنا حسن النية والإخلاص فيها، وسلمنا من الأمراض والشواغل المانعة من أدائها، وصرف عنا الوساوس والخطرات المقللة من أجرها وثوابها، وهو الذي أعان الأبدان والجوارح على امتثالها، وقوَّى العزائم والهمم على تحسينها وإكمالها، حتى تمت على الوجه الصحيح بفضله ومنته.

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

قال الطبري: «يقول: بل الله يمن عليكم أيها القوم أن وفقكم للإيمان به وبرسوله.

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ يقول: إن كنتم صادقين في قولكم آمنا»[(١)].

ولهذ كلما وفق العبد لطاعة وجب عليه شكر الله على هذا التوفيق، وهذا الشكر يحتاج إلى شكر آخر إلى ما لانهاية فلا يبلغ العبد شكر الله .

روى الخرائطي عن أبي عمرو الشيباني قال: «قال موسى يوم الطور: يا رب إن أنا صليت فمن قِبَلك، وإن أنا تصدقت فمن قِبَلك، وإن بلغت رسالاتك فمن قِبَلك، فكيف أشكرك؟ قال: يا موسى الآن شكرتني»[(٢)].

فلولا الله ما صلينا ولا قرأنا، ولا صمنا ولا قمنا و لا تصدقنا ولا ذكرنا، وهذا يستوجب حمد الله، واللهج بشكره على عبادته متضرعين إليه بقولنا: اللهم لك الحمد على أن يسرت لنا عبادتك، فلك المنة علينا فيها، ولك الفضل أن رزقتنا شكرها ،ولك العتبى من التقصير فيها، فنسألك كما هديتنا إليها من غير سابق فضل نستحق به

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٩٦).

(٢) فضيلة الشكر لله على نعمته (ص: ٤٥).

منتك، فنسألك أن تتقبلها منا من غير استحقاق لنا في الثواب إلا برحمتك.

سادسًا: اعلم أيها العبد الصالح المطيع أن منة الله عليك أعظم من منته على من حرم ما اختصك به العبادة، فليس من المروءة ولا من الوفاء بالجميل أن يكون حمدك لربك كحمدهم وشكرك له كشكرهم، وحبك له كحبهم، وثناؤك عليه كثنائهم، و طاعتك له كطاعتهم.

فأنت اختصك الله بمزيد فضل واصطفاء لا ينبغي أن تتساوى في معاملة ربك بمن لم ينل رتبتك عنده، فتنبه لهذه اللطيفة فإنها عزيزة قل من يتنبه لها.

سابعًا: اعلم أن الشيطان هو عدوك المبين كما أخبرك بهذا ربك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾ [يوسف: ٥].

وهو حريص على غوايتك، ولا يرضى حتى يوردك النار، قال تعالى مخبرًا عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وقد قعد لبني آدم عند كل طاعة لصرفهم عنها قال تعالى في الخبر

عنه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

فأخبر أنه يقعد لبني آدم على الطريق الذي أمرهم الله أن يسلكوه، فيأتيهم في ذلك من كل وجوهه من الوجه الذي أمرهم الله به، فيصدهم عنه، وذلك من بين أيديهم وعن أيمانهم من خلفهم وعن شمائلهم ذكره الطبري[(١)] .

ولهذا يكيد لبني آدم كيدا عظيما في صرفهم عن الطاعات، وله في ذلك أساليب وحيل دلت عليها النصوص ونبه عليها العلماء[(٢)]:

فمن ذلك أنه يثبط الانسان عن الطاعة، فإن لم يستجب له في تركها، دعاه إلى تسويفها وتأخيرها حتى ينسيه إياها أو يشغله بغيرها فلا يعملها.

فإن لم يظفر بذلك وأقبل العبد على الطاعة شغلها في أثنائها

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٠٠).

(٢) وقد أفرد العلماء في ذلك كتبا منها: «تلبيس إبليس» لابن الجوزي، و«ذم الموسوسين» لابن قدامة، و«إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» لابن القيم.

بالوساوس والخطرات حتى يفسدها عليه أو يقلل من أجره فيها، كما يوسوس للمصلي في صلاته فينصرف من صلاته وهو لا يدري كم صلى ولا ما قرأ، كما جاء في الحديث أن الشيطان يأتي للإنسان في الصلاة: فيقول له: «اذكر كذا واذكر كذا لما لم يكن يذكر من قبل حتى يظل الرجل ما يدري كم صلى »[(١)].

فإذا لم يدرك ذلك من العبد زيّن له عمله وغرس في قلبه العجب حتى يتعالى ويتكبر به على الخلق، ولربما منّ به على ربه فيُرد عمله بذلك أو ينقص به من أجره.

فإن سلم العامل من ذلك أغراه عدوه بالتحديث بعمله في المجالس حتى يسمّع بعمله، فيبطل بذلك عمله أو يفوت عليه فضله.

فإن لم ينجح الشيطان في كل ذلك وتم العمل الصالح سعى في إبطاله بدعوة صاحبه للمعصية وتزيينها له، تحت حيلة الترفيه عن النفس وإجمام النفس بعد الاجتهاد في الطاعة؛ ليبطل بذلك أجر الطاعة بالمعاصي التي تعقبها فإن المعاصي تحبط أجر ما يقابلها

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٩).

من الطاعات[١].

وإجمام النفس لا ينكر، وقد دلت عليه السنة لما اشتكى بعض الصحابه للنبي ﷺ تغيّر حالهم في بيوتهم عما كانوا عليه عنده في المسجد وفيهم حنظلة الأسيدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات[٢].

فقول النبي ﷺ: «ساعة وساعة» أي ساعة عبادة وساعة أخرى يقضيها المسلم فيما أباح الله من مخالطة الأهل ومؤانستهم وغير ذلك من المباحات.

وليس كما يفهمه بعض من لبّس عليهم الشيطان فيقترفون المعاصي، وإذا نُهوا عنها قالوا: «ساعة وساعة»، فالساعة المأذون فيها

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات، ولكن قد تحبط ما يقابلها عند أكثر أهل السنة» نقلا عن ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٢٤)، وانظر كتابي: (تجريد الاتباع ص: ٦٤-٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).

هي ساعة إجمام فيما أباح الله يُتقوى بها على طاعة الله وليست ساعة معصية؛ فإن المعاصي لا يؤذن فيها بحال لا قبل العبادة ولا بعدها.

فالواجب على المسلم أن يكون على حذر من المصايد التي نصبها الشيطان للإنسان، وأن يكون فقيها بمعرفتها حتى لا يقع فيها، كما يكون فقيها بعبادته كيف يؤديها.

قال أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إن من فقه العبد أن يعلم ما زاد من إيمانه وما نقص منه، وإن من فقه العبد أن يعلم أمزداد هو أم منتقص، وإن من فقه العبد أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه»[(١)].

ثامنًا: المداومة على العمل وعدم الانقطاع أبلغ في التعبد، وأفضل في الأجر؛ لما أخرجه مسلم من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن رسول الله سئل: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «أدومه وإن قل»[(٢)].

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنها سئلت كيف كان عمل رسول الله ﷺ؛ هل كان يخص شيئا من الأيام؟ قالت: «كان عمله ديمة، وأيكم

(١) السنة لأبي بكر بن الخلال (٥/ ٤٩)
(٢) أخرجه مسلم (٧٨٢).

يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع»[(١)].

وللمداومة على العمل فوائد كثير منها:

١- أنها أعظم للأجر وأحب إلى الله كما أخبر بذلك النبي ﷺ في الحديث السابق.

٢- أنها موافقة لسنة النبي ﷺ؛ فإنه كان يداوم على العمل كما أخبرت بذلك عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما في الحديث المتقدم.

٣- أنها أسهل على النفس؛ لأن النفس إذا أَلِفت شيئًا سَهُلَ عليها.

٤- أنه بالمداومة على العمل يجري الأجر على العامل مع الانقطاع لعذر، قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد، أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا»[(٢)].

٥- أن الشيطان ييأس من صاحب المداومة أن يثنيه عن العمل، فيملّه.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا نظر إليك الشيطان فرآك

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٦).

مداوما على طاعة الله عز وجل فبغاك، وبغاك، فإذا رآك مداوما ملَّك ورفضك، وإذا رآك مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك»[١].

٦- أنه بالمداومة على الطاعة يكون العبد ملازما لطاعة الله في كل وقت بخلاف المنقطع عن العمل: قال ابن الجوزي: «مداوم الخير ملازم للخدمة، وليس من لازم الباب في كل يوم وقتا ما كمن لازم يوما كاملا ثم انقطع»[٢].

وقال الشاعر:

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته
ومدمن القرع للأبواب أن يلجا[٣]

٧- بالمداومة على العمل تُنال محبة والله وولايته ،كما دل على هذا الحديث القدسي المشهور بحديث الأولياء .

يقول الله عز وجل: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى

(١) المصدر السابق (ص: ٤٦).
(٢) نقله عنه ابن حجر في فتح الباري (١/ ١٠٣).
(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ١٣٦) .

أحبه»[١].

ومحبة الله للعبد درجة عظيمة في مراتب التعبد وهي أعظم من محبة العبد لربه .

فعلى المسلم المداومة على العمل، فإن الناس في مواسم الخير كرمضان وعشر ذي الحجة وغيرهما من الأوقات الفاضلة يجتهدون في التقرب لله بكثير من الأعمال الصالحة، لكن قلَّ منهم من يداوم على الطاعة.

وهذا لا يعني أن يكون عمله في سائر الأوقات كعمله في مواسم الطاعات، فللأزمان الفاضلة مزيد عناية واجتهاد في العبادة لا تكون في غيرها، وقد دل على هذا هدي النبي ﷺ.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر، ما لا يجتهد في غيره»[٢].

ولكن يحرص المسلم على المداومة على جنس الطاعة، فإن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (١١٧٥) .

كان في رمضان يصوم ويقوم ويقرأ ويذكر ويدعو ويتصدق، فيحرص على أن يكون له حظ من هذه العبادات كلها بعد رمضان، وإن لم يكن على القدر الذي يكون في رمضان.

تاسعًا: الحرص على الارتقاء في مراتب العبودية وعدم النقص، وهذا يرجع إلى الفقه بالشرع ومعرفة النفس؛ فيتقرب لله من العمل بما يطيق، ويعالج نفسه ويروضها عليه، فإذا انقادت لذلك نفسه زاد في العمل، فلايزال في زيادة ورفعة إلى أن يلقى الله وهو على أكمل حال، وهذه منزلة عظيمة كان عليها كبار الأئمة.

قال علي بن عبد الله بن جَعفر عن الامام أحمد: «أَعرف أَبا عبد الله منذ خمسين سنة يَزداد خيراً»[١].

وقال أحمد بن حنبل عن الامام أبي عبيد القاسم بن سلام: «أَبُو عبيد عندنا ممن يزداد كل يوم خيرًا»[٢].

وقال يزيد بن هارون: «كان عمرو بن عون ممن يزداد كل يوم

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص: ١٤٩).

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٢٣٩).

خيرا»[(١)].

وقال الدارقطني في الإمام أبي الحسين المحاملي من كبار الشافعية: «حفظ القرآن والفرائض، ودرس المذهب، وكتب الحديث، وهو ممن يزداد كل يوم خيرا»[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في وصف حال المتعبدين التعبد المطلق -: «وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة، عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير، حتى ينتهي سيره، فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم، فهذا هو

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٦/ ٢٥٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٦٥).

العبد المطلق ...»(١).

عاشرًا: ملازمة التوكل على الله، وإدامة الدعاء والتضرع له بالثبات على الدين، والاستقامة على الطاعة، وإظهار الفقر لله في ذلك، مع التَّبَرِّي من الحول والقوة في القيام بشيء من الدين إلا بتوفيق الله. تأسيا بالأنبياء في ذلك:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ومن دعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧﴾ [الأنعام: ٧٧].

ومن دعائه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ [إبراهيم: ٤٠].

ومن دعائه وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٩-٩٠).

ومن دعاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عند كيد النسوة له: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].

ومن دعائه عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

ومن دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه: ٢٥ - ٣٤].

ومن دعاء الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٧-٨].

وكان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[(١)].

وقال النبي ﷺ لمعاذ: « يا معاذ إني لأحبك؛ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(٢)].

فإذا كان هذا هو حال صفوة الخلق وخيارهم ورسل الله المخاطبين بالوحي، والمبلغين عن الله شرعه، والمؤيدين بالمعجزات، يتضرعون لله أن يثبتهم على التوحيدوأصل الدين، مظهرين فقرهم لله في ذلك.فمن دونهم من الخلق أشد حاجة، وأعظم فقرا لله، وأخوف على دينهم وثباتهم عليه من هؤلاء الأخيار. ولكن لنقص علمهم بالله وبأنفسهم لم يدركوا هذه الحقيقة كما أدركها الرسل وأقرب الناس إليهم في العلم .

(١) أخرجه أحمد (١٢١٠٧) والترمذي (٢١٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٨١)، وقال محققوا المسند: «إسناده قوي على شرط مسلم».

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١١٩) وأبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٦٣)، وقال محققوا المسند: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير عقبة بن مسلم،... وهو ثقة».

ولهذا نجد أنه كلما علت منزلة الرجل في الدين كان أخوف على دينه وثباته ممن هو دونه يقول ابن رجب: « وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، يقولون: بماذا يختم لنا؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق، يقولون: ماذا سبق لنا»(١).

وبكى أحد أصحاب النبي ﷺ عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، وقال: هذه لهذه، وهذه لهذه، ولا أبالي» فلا أدري في أي القبضتين أنا(٢).

وقال أبو عمران الجوني: «وهل أبكى العيون بكاء، إلا الكتاب السابق»(٣).

وقال عطاء الخفاف «ما لقيت سفيان الثوري إلا باكيا فقلت: ما شأنك؟ قال: «أخاف أن أكون في أم الكتاب شقيا»(٤).

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٥٩٣) وقال محققوه: «إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح».

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣١٢).

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٥١).

وقال سفيان لبعض الصالحين: « هل أبكاك قط علم الله فيك؟ فقال له ذلك الرجل: تركني لا أفرح أبدا»[١].

ويقول ابن القيم: «فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نفس وكل لحظة وطرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى، لو تخلى عنه طرفة عين لثل عرش توحيده، ولخرت سماء إيمانه على الأرض، وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فهجيرى قلبه ودأب لسانه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك، ودعواه: يا حي يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك.

ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه، كما يشهد ربوبيته وخلقه، فيسأله توفيقه مسألة المضطر، ويعوذ به من خذلانه عياذ

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ١٧٣).

الملهوف، ويلقي نفسه بين يديه، طريحًا ببابه مستسلمًا له، ناكس الرأس بين يديه، خاضعا ذليلًا مستكينًا، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ونشورًا»(١).

وبه ختام الحديث عن هذا الموضوع الجليل الذي لا يمكن أن يستوفى في هذه العجالة، وإنما أردت التنبيه على أهم ما دار في النفس مما يتعلق به من مسائل من غير سابق إعداد ولا تحضير.

سائلاً الله الكريم كما يسر سطره أن يتقبله بمنته وفضله.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته .

كتبه بتوفيق من الله

إبراهيم بن عامر الرحيلي

٦ / ١٠ / ١٤٤١هـ

(١) مدارج السالكين (١/ ٤١٥).